FAKULTI PENGAJIAN ISLAM
كلية الدراسات الإسلامية
Faculty of Islamic Studies

جورنل التراث
AL-TURATH
Journal of al-Quran and al-Sunnah

AL-TURATH: JOURNAL OF AL-QURAN AND AL-SUNNAH
VOLUME 8 ISSUE 1 2023
E-ISSN 0128-0899

INDEXED BY MYJURNAL

HOMEPAGE: https://www.ukm.my/turath/volume-8-no-1-2023/

Copyright Information:

This article is open access and is distributed under the terms of
Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Publisher Information:

Research Centre for al-Quran and al-Sunnah
Faculty of Islamic Studies
The National University of Malaysia
43600 UKM Bangi, Selangor Darul Ehsan, Malaysia
Tel: +60 3 8921 4405 | Fax: +60 3 8921 3017
Email: alturathjournal@gmail.com

Journal QR Code :

TURATH Journal of Al-Quran and Al-Sunnah

الهدايات المستنبطة من الآيات 23–24 سورة الإسراء: عرضا ودراسة

Guidances Derived from the Verse 23–24 Surah Al-Isra’: Presentation and Study

Maryam Nafel Al-Duwailah
Department of Interpretation & Hadith, College of Sharia and Islamic Studies,
Kuwait University, Kuwait.
Corresponding author: almariem99@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.17576/turath-2023-0801-14

Article history

Received: 09/03/2023
Revised: 09/05/2023
Accepted: 19/06/2023
Published: 31/06/2023

ملخص البحث

يهدف البحث إلى استنباط الهدايات القرآنية من قوله تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [الإسراء: 23–24]، مع بيان معاني مفردات الآية وتفسيرها، وسبل تحقيق هدايات الآيتين منها في واقع المجتمع، مع بيان معنى الآيتين الكريمتين، وجمع ما يمكن من الهدايات المستنبطة منهما، وبيان سبل تحقيقها لإصلاح واقع المجتمع، انتهج البحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على جمع المادة العلمية لاستقصاء الهدايات المستنبطة منهما، ومن أهم النتائج التي توصل إليها: أهمية العلم بعظم مكانة الوالدين الثابتة في القرآن الكريم، حيث جاءت بعد تقرير وحدانية الله تعالى وعبادته، وضمها لهدايات عديدة يؤدي فهمها واعتقادها إلى إصلاح الفرد والمجتمع، أطلق الله تعالى لفظ (الإحسان) ليتناول اللفظ بعمومه وإطلاقه على كل إحسان ممكن ومقدور عليه، وهذا من كمال مدلول المفردة القرآنية. ويوصي الباحث بإفراد أبحاث قرآنية تتعلق بأهمية الأخلاق الإسلامية في مواجهة المشكلات الاجتماعية وأثرها في استقرار وبناء المجتمع، وكذلك بالدراسة الموضوعية في النماذج التي أوردها القرآن الكريم في بر الوالدين وإفرادها بالدراسة والتحليل كقصة إسماعيل عليه السلام مع أبيه إبراهيم عليه السلام.

الكلمات المفتاحية: الهدايات، الاستنباط، الإحسان إلى الوالدين.

© 2023 All rights reserved

Abstract

The research aims to derive the *hidayat al-Quran* from the Almighty's saying: Your Lord has decreed that you worship none but Him and be kind to. For your Lord has decreed that you worship none but Him. And honour your parents. If one or both of them, reach old age in your care, never say to them even 'ugh,' nor yell at them. Rather, address them respectfully. And be humble with them out of mercy, and pray, "My Lord! Be merciful to them as they raised me when I was young." [Al-Isra: 23-24], with an explanation of the meanings of the vocabulary of the verse and its interpretation, and ways to realize the *hidayat* of the two verses from it in the reality of society, with an indication of the meaning of the two noble verses, and collecting what is possible from the *hidayat* derived from them, and indicating the ways to achieve them to reform the reality of society. The scientific material to investigate the *hidayat* derived from them, and among the most important results he reached: the importance of knowing the greatness of the fixed position of parents in the Holy Qur'an, as it came after the determination of the oneness of God Almighty and His worship, and its inclusion of many *hidayat* whose understanding and belief leads to the reform of the individual and society, God Almighty launched the word (benevolence)) to deal with the term in its generality and apply it to every possible and capable beneficence, and this is from the perfection of the meaning of the Qur'anic term. The researcher recommends singling out Quranic researches related to the importance of Islamic morals in facing social problems and their impact on the stability and building of society, as well as an objective study of the models mentioned in the Holy Quran in honoring parents, and singling them out for study and analysis, such as the story of Ismail, peace be upon him, with his father Ibrahim, peace be upon him.

Keywords: *hidayat al-Quran*, elicitation, benevolence to parents.

تمهيد

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً * قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ [الكهف: 1، 2]. فقد اعتنى الإسلام اعتناءً بليغًا بالإحسان إلى الوالدين، حيث كرر القرآن الأمر بالإحسان إلى الوالدين في مواضع عدة في القرآن الكريم بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة في قلوب الأبناء، فجعل طاعتهما والإحسان إليهما من أجلِّ القربات لله تعالى، ويكفي في ذلك أن الله قرن الإحسان إليهما بالأمر بعبادته وتوحيده؛ قال تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا [الإسراء: 23].

ولما كان للإحسان إلى الوالدين هذه المنزلة الرفيعة في دين الإسلام، ونظرًا لما يلحظ من عقوق واستثقال وكراهة القيام بحقوق الوالدين في زماننا هذا بصورة واضحة ترتب عليه ازدياد نسبة دخول الوالدين أو أحدهما دور رعاية المسنين إن وجد ذلك أو تركهم دون رعاية، فكانت المآسي والقصص. لذا أحببت أن أعيش مع رحاب هاتين الآيتين الكريمتين، موضحة للمعنى، ومستخرجة للهدايات والدلالات التي تدل عليها الآيتين الكريمتين من خلال أقوال العلماء؛ لكي نقف على عظم مكانة الوالدين في الإسلام. فكان هذا البحث الذي هو بعنوان «الهدايات المستنبطة من قوله تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [الإسراء: 23، 24]، عرضًا ودراسةً.

وتقوم إشكالية البحث على وجه المناسبة بين قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ بعد توحيد الله وعبادته: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾؟ ودقة كلام المفسرين وتعدد الروايات في شرح بعض الألفاظ القرآنية والمعاني التفسيرية، وكيف ينعكس قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ في بيان عظم مكانة الوالدين؟ وكيف يمكننا استخراج الهدايات منها؟ وما أثر معرفة الفروق الدلالية في توضح ودقة توجيه المعنى. يهدف البحث إلى الوقوف على معالم منهجية القرآن الكريم في الكشف الدقيق لمكانة الوالدين، والتعرف على دلالات ألفاظ الآيتين لاستخراج حقوق الوالدين، وإظهار وجه التمثيل في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ في فهم كيفية التعامل مع الوالدين.

الدراسات السابقة

بعد التأمل والبحث لم أجد دراسة مستقلة متخصصة جمعت بين إيضاح معنى الآيتين وبين الهدايات المستنبطة منها بيد أن هناك دراسات قرآنية تخدم موضوع بر الوالدين في القرآن الكريم، منها دراسة:

«بر الوالدين في القرآن الكريم» (تفسير موضوعي) للدكتور محمد رمضان، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية (1427هـ) تحدث عن التحذير من عقوق الوالدين، وذكر صور من بر وإحسان السلف.

كتاب مطبوع تحت عنوان: «من معالم الهدي القرآني في بر الوالدين» للدكتور سليمان البيرة، ذكر فيه المؤلف أهمية البر ومكانته وآثاره.

«بر الوالدين في القرآن الكريم دراسة موضوعية» للدكتور: حامد بن يعقوب الفريج، تحدث عن صور بر الوالدين كما جاءت في الآيات القرآنية، وقسمها ضمن محورين، المحور الأول: جملة من الأساليب التي وردت في القرآن في الدعوة إلى بر الوالدين. المحور الثاني: يشتمل على عشر صور من البر والإحسان إلى الوالدين.

ما يضيفه البحث: الإسهام في بيان عظم مكانة الوالدين من خلال بيان معنى الآيتين وذكر أقوال المفسرين للكشف عن جمال أسلوب القرآن وما ينطوي عليه من أسرار بلاغية وتربوية ودعوية، والإسهام في جمع أكبر قدر ممكن من الهدايات التي نص عليها أهل العلم قديمًا وحديثًا. والسعي لربط الواقع المعاصر بهدي القرآن الكريم من أجل تقويم حال الأبناء مع الوالدين وإصلاح ما فيه من خلل وعليه؛ فهي دراسة جمعت بين بيان معاني ألفاظ الآيتين في الدلالة على عظم حق الوالدين، وأثر هذه المعاني في استخراج الهدايات المستنبطة منها. وذلك في قوله تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [الإسراء: 23، 24].

منهج البحث

سلك البحث المنهج الاستقرائي: من خلال الوقوف في بيان معاني ألفاظ الآيتين من خلال كتب التفسير القديمة والحديثة التي تيسر الاطلاع عليها لجمع ما كتبه المفسرون من معاني حول الآيتين موضوع البحث إضافة إلى جمع الهدايات القرآنية من الآيتين موضوع البحث التي نص عليها المفسرون عليها أصالة وإشارة. والمنهج الاستنباطي: من خلال استنباط هدايات قرآنية من الآية لم ينص المفسرون عليها أصالة.

تعريف الهدايات لغة واصطلاحا

الهدايات جمع هداية وهي من "الهُدى بضَمّ الهاءِ وفَتحِ الدَّالِ: الرَّشَادُ، والدَّلالةُ، يُذَكَّر ويُؤنَّث. هَداهُ هُدىً، وهَدْيا [وهِدايَة] وهِدْيَة بكسرهما: أرشده، فاهْتدَى وتَهَدَّى، وهَداهُ الله الطَّريقَ وللطَّريقِ، وإلى الطَّريق" (الفيروزآبادى ٨١٧هـ). قال ابن عطية: "الهِدايةُ في اللغة: الإرشاد لكنَّها تتصرَّف على وُجوه يُعبّر عنها المفسّرون بغير لفظ الإرشاد، وكلُّها إذا تؤملت رجعت إليه"(ابن عطية ت ٥٤٢هـ)، يقول الفيروزآبادي: "وهو صحيح، ولم يذكر أهل اللغة فيها إلا أنها بمعنى الإرشاد، والأصل عدم الاشتراك" (الفيروزآبادى ٨١٧هـ).

تعريف الهدايات القرآنية في الاصطلاح: "الدلالة المبينة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل إلى كل خير وتمنع من كل شر" (حمد، طه عابدين طه د.ت، وآخرون)، وقد تكون الهداية في حرف وفي كلمة قرآنية واحدة، وفي جملة قرآنية واحدة، وقد تكون في آية قرآنية، وقد تجتمع جملة هدايات في الآية الواحدة، أو في آيات الموضوع الواحد في السورة، وقد تكون الهدايات مستنبطة من مجموع آيات السورة، أو من الموضوع، أو اللفظ القرآني الواحد، ولا تخلوا آية قرآنية ولو كانت من كلمة واحدة من هداية ظاهرة أو مستنبطة، بل قد تجد فيها عشرات الهدايات؛ لأن الآية مع ما فيها من هدايات هي في الوقت نفسه تدل على وجوده جل وعلا؛ لأن من لوازم القول أن يكون له قائل، وتدل على علمه وحكمته ورحمته، لما حوته من هدي محكم ، يسدد لكل خير وصلاح».

الاستنباط في اللغة: "النون والباء والطاء كلمة تدلّ على استخراج شيء، واستنبطُتُ الماء: استخرجتُه"، (ابن فارس ت ٣٩٥هـ)، ومنه قوله تعالى: لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ [النساء:83] أي: يستخرجونه، واستنبط الفقيه: استخرجَ الفقه الباطن بفهمه واجتهاده (الفيروزآبادى ٨١٧هـ). قال بن جرير الطبري رحمه الله: "وكل مستخرج شيئًا كان مستترًا عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب فهو له مستنبط" (ابن جرير الطبري ٣١٠هـ)، وقال ابن القيم رحمه الله: "فإن الاستنباط هو استخراج الشيء الثابت الخفي الذي لا يعثر عليه كل أحد" (ابن القيم ٧٥١هـ)، وقال أيضا رحمه الله: "إن الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه"(ابن القيم ٧٥١هـ).

الاستنباط في الاصطلاح هو استخراج معنى خفي لا يظهر لغير المفسر من الآية أو الآيات بطريق

صحيح، أو هو استخراج المعاني الخفية من الآيات والسور، فالاستنباط في استعمال المفسرين هو: "استخراج ما وراء ظواهر معاني الألفاظ من الآيات القرآنية" (نايف بن سعيد الزهراني)، وهذا ما بينه ابن القيم رحمه الله من خلال شرحه للاستنباط حيث قال هو: "قدر زائد على مجرد فهم اللفظ».

مناسبة الآتين لما قبلهما وما بعدهما

مناسبة الآية لما قبلها

لما نهى الله تعالى أن يشرك به غيره، وبيّن أنه متصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن شوائب النقص «قرع الأسماع بهذا النهي المحتم لتوحيده، أتبع الإخبار بالأمر بذلك جمعا في ذلك بين صريحي الأمر والنهي تصريحا بعد التنزيه له عن الشريك بالإفراد له في العبادة في أسلوب الخبر، إعلاما بعظم المقام، ثم أتبعه ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه فقال: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...

مناسبة الآية لما بعدها

«لما كان من يخفض لهما جناح الذل ويدعو لهما قد يكون في نفسه شيئًا غير مرغوب فيه أو عسيرًا عليه أو كان يفعل ذلك رياء، ناسبه الترهيب في التهاون فيه والترغيب في إخلاص البر بالوالدين» بقوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾، [الإسراء: 25]، (سعد عبد العظيم د. ت). أي: بما في ضمائركم من قصد البر والإحسان إليهما، وكأنه تهديد وترهيب لمن يجد في نفسه كراهة واستثقالا ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي قاصدين البر والإحسان إليهما دون العقوق، فلا يصدكم إن وقع منكم الهفوة والزلة في حالة الانشغال أو الغضب ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ أي: التوابين الرجاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم والاستقامة على المأمور: ﴿غَفُورًا﴾ أي: لهم ما اكتسبوا ولا يخفى ما في صدر الآية من الوعد لمن أضمر البر، والوعيد لمن أضمر الكراهة والاستثقال والعقوق». (القاسمي، جمال الدين ١٣٣٢هـ) فظهرت المناسبة بين هذه الآية والآية السابقة لها.

ذكر الآيتين وبيان معناهما

قال تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [الإسراء: 23-24]، قوله: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، (قضى) بمعنى: أمر وألزم وأوجب عليكم» (ابن عطية ٥٤٢هـ)، والمعنى: وأَمَرَ ربك يا محمد ووصى، وأوجب ألا تعبدوا أنت وجميع أهل دعوتك، وهم جميع الخلق إلا الله وحده» (البقاعي ٨٨٥هـ)، «ولما أمر بمعرفة الحق للمحسن المطلق منبهًا على وجوب ذلك باسم الرب؛ أتبعه الأمر بمعرفة الحق لأول المربين من الخلق، فقال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (البقاعي ٨٨٥هـ).

هذا والآية مشتملة على معاني عظيمة توجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين منها: تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، أنه سبحانه وتعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى، وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة، كما أنه تعالى لم يقل: وإحسانا بالوالدين، بل قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام» (الفخر الرازي ٦٠٦هـ).

هذا؛ وقد قرن الله تعالى حق الأبوين بحقه؛ لما له من حق الأبوين فيه بعض المناسبة، فالمتأمل في الآية الكريمة يظهر له أن أعظم الحقوق على الإنسان حق الله تعالى، ويتمثل في عبادته وحده لا شريك له، وتنفيذ شرعه المبلغ على لسان رسوله محمد، وهذا لا شك أنه أمر جلي واضح، فأعظم النعم نعمة العبودية لله وحده لا شريك له، فهو سبحانه السبب الحقيقي في وجود الإنسان وتكريمه على سائر مخلوقاته، «ويتلو حق الله ونعمته في العظمة حق الوالدين، فهما السبب الظاهر لوجود الولد؛ وإذا كان الله تعالى أنعم على العبد ورباه بجميع نعمه فقد سخر الوالدين لخدمته ورعايته وحفظه من الضياع والهلاك في وقت الصغر ما لا يقدر قدره إلا الله تعالى، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخلاق، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين؛ وهو قوله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾» (الفخر الرازي ٦٠٦هـ).

وكذلك من أوجه المناسبة: "أن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضًا البته، بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضًا ماليًّا ولا ثوابًا ولا جزاءً، إضافة إلى ذلك أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه نعمه وكرمه، وكذلك الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه كرمهما وإن كان الولد مسيئا إلى الوالدين، فصبر الوالدان على ذلك ظاهر لا ينفذ.." (الفخر الرازي ٦٠٦هـ).

ولعل أجمع تعبير عن ذلك هو ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رجل يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك» (مسلم، ٢٦١ هـ، رقم الحديث 548)، ولذا «جعل النبي التبرؤ من الأبوين كفرًا؛ لمناسبته للتبرؤ من الرب» (ابن تيمية ٧٢٨هـ، رقم الحديث 6768)، قال: «لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر» (البخاري 256، رقم الحديث: 6768). أي: لا تعرضوا عن آبائكم الحقيقيين وتنتسبوا إلى غيرهم، فإن ذلك مخرجًا عن الإسلام إن استحل ذلك، أو المراد فقد كفر بالنعمة إذ أنكر حق أبيه عليه» (البغا، د.ت).

هذا؛ والإحسان إلى الوالدين لا يتوقف على كونهما مسلمين أو طائعين، بل ولو كانا كافرين أو فاسقين، فقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ غير مقيد بكونهما مؤمنين أم لا، فدلت هذه الآية على أن الأمر بتعظيم

الوالدين لمحض كونهما والدين، وذلك يقتضي العموم، هذا ولكن لا يطيعهما في كفر أو فسق، فقد اتفق أكثر العلماء على أنه يجب تعظيم الوالدين وإن كانا كافرين، يدل عليه وجوه منها: أن قوله في هذه الآية ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ غير مقيد بكونهما مؤمنين أم لا، كما دلت هذه الآية على أن الأمر بتعظيم الوالدين لمحض كونهما والدين وذلك يقتضي العموم، ثم إنه تعالى قال في آخر الآية ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ فصرح ببيان السبب في وجوب هذا التعظيم، ثم أن الإحسان إليهما هو ألّا يؤذيهما ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كانا فاسقين» (الفخر الرازي ٦٠٦هـ). يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ [العنكبوت: 8].

«ومن لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أن إحسان المؤمن على الرغم من شركهما ومجاهدتهما إياه على الشرك، كان ذلك مما يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة، فجعل الله جزاءً عن وحشة تلك التفرقة أُنسًا بجعله في عداد الصالحين، يأنس بهم» (ابن عاشور ١٣٩٣هـ) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: 9]. لذا كان من الإحسان إليهما مصاحبتهما بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ [لقمان: 15]، فأمر سبحانه بالرفق بهما القيام بحقهما بما ليس بمعصية، أما أمر الشرك والفسق والعقاب عليه فهو مفوض إلى الله تعالى فهو الذي يجازي المسيئين والمحسنين.

فهذا إبراهيم عليه السلام خاطب أباه مع كفره، خطاب لين وتوقير واحترام، فناداه بوصف الأبوة: «يا أبت»، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ..﴾ [مريم: 42-46]، الذي كرره أربع مرات، دال على شدة تلطفه وشفقته ونصحه لأبيه، قال الزمخشري: «انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعطيه فيما كان متورطًا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقلاء وانسخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق والحسن». (الزمخشري ٥٣٨هـ)، وحسن أدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه تجلى أنه رتب كلامه مع أبيه بأحسن وألين العبارات التالية:

أولًا: استفتح نصحه واستدراجه لأبيه إلى الحق بقوله: «يا أبت»، توسلًا إليه واستدرارًا لعطفه.

ثانيًا: «أنه طلب منه أولًا العلة في خطئه، طلب منبه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه» (الزمخشري ٥٣٨هـ).

ثالثًا: أنه لم يقل: «يا أبت، أنا عالم، وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شيء»، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علم، وأن الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتك» (السعدي ١٣٧٦هـ).

رابعًا: أنه عليه السلام تأدب معه إذ لم يصرح بلحوق العذاب، بل أخرج ذلك مخرج الخائف، وأتى بلفظ المس

الذي هو ألطف من المعاقبة وذكر العذاب، ورتب على مس العذاب ما هو أكبر منه، وهو ولاية الشيطان (أبو حيان ٧٤٥هـ).

فكيف الحال إذا كنا مؤمنين، وقد جاءت الأحاديث عن النبي تؤكد على وجوب طاعة الوالدين في غير معصية الله تعالى، وأنها مقدمة على سائر الأعمال بل وعلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فعن أبي سعيد الخدري، أن رجلا هاجر إلى رسول الله من اليمن فقال: «هل لك أحد باليمن» فقال: أبواي، فقال: «أذنا لك»، قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما».(أبو داود، 275، حديث رقم 2030، والألباني 1420).

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: قدم الله تعالى ذكرهما فلم يقل: وإحسانا بالوالدين بل قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ ليدل على شدة الاهتمام بهما، أطلق الله تعالى لفظ (الإحسان) ليتناول اللفظ بعمومه وإطلاقه كل إحسان ممكن ومقدور عليه من الأقوال والأفعال والبذل والمواساة، وهذا من كمال مدلول الخطاب وعظم دلالاته وشموله، فكل ما يسمى إحسانًا داخل في الآية، كما قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [المصير: 14]، «فالشكر هو تصور النعمة وإظهارها، ويكون بالقلب بمعرفة النعمة، وباللسان بالثناء على المنعم، وبالجوارح، وذلك بمكافأته بقدر ما يستحق» (الأصفهاني ت ٥٠٢هـ) .

وإذا استحضرنا نعم الوالدين الكثيرة فلا يمكن أن يفي الولد حق الشكر لهذه النعم، مهما قدم من أعمال البر القولية والفعلية والبدنية، «والمعنى: وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحسانا عظيما كاملا، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظمي وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء، وفي الأمثال المشهورة أن البادي بالبر لا يكافأ» (الرازي، 606)، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «لا يجزي ولد والدًا، إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»،(مسلم، ٢٦١ هـ، حديث رقم 1501). أي: لا يجزي ولدٌ والدَه؛ أي: لا يقوم ولد بما لأبيه عليه من حق، ولا يكافئه بإحسانه به، إلا أن يجده مملوكًا؛ أي: إلا أن يصادفه عبدًا رقيقًا، فيشتريه فيعتقه؛ أي: فيدفع لمالك قيمته ليصير بذلك حرًّا (عبد القادر الحمد ١٤٤٠هـ).

هذا؛ وكما ألزم وأوجب سبحانه وتعالى العبد بالإحسان إلى الوالدين؛ فإنه سبحانه وتعالى نهى عن عقوقهما وشدد في ذلك غاية التشديد، وحسبنا في ذلك أن القرآن عطف الأمر بالإحسان للوالدين عن الشرك بالله، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الأنعام: 151]، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله فقال: «ألا أنبئك بأكبر الكبائر؟ ثلاثًا: الإشراك بالله، وعقوق

الوالدين، وشهادة الزور، أو قول الزور»، وكان رسول الله متكئًا، فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»، (مسلم، ٢٦١ هـ، حديث رقم 87).

هذا؛ ومن «عقوق الوالدين مخالفتهما في أغراضهما الجائزة، كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمَرَا أو أحدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب» (القرطبي671).

هذا؛ وعطف الأمر بالإحسان للوالدين على النهي عن الشرك وتقدمهما فعل التحريم واشتركا في الدخول تحت حكمه «دليل واضح أن التحريم راجع إلى الأضداد، فكأنه قيل: أتل ما حرم ربكم أن لا تشركوا ولا تُسيئوا إلى الوالدين، خلا أنه قد أخرج مخرج الأمر بالإحسان إليهما بين النهيين المكتنفين له للمبالغة في إيجاب مراعاة حقوقهما، فإن مجرد ترك الإساءة إليهما غير كاف في قضاء حقوقهما، ولذلك عُقب به النهيُ عن الإشراك الذي هو أعظم المحرمات وأكبر الكبائر»،(أبو السعود ٩٨٢هـ).

هذا ولما كان سبحانه عليما خبيرا في تقصير أو انتفاء الإحسان إليهما عند تقدمهما في السن بما يلقى الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤنهما، وما يصدر منهما من سوء الخلق، لا سيما في حالة ضعفهما وضعف تفكيرهما أو مرضهما فيفضي ذلك من بعض الأبناء إلى الملل والتضجر من الوالدين خص الله تعالى هذه الحالة بالذكر تأكيدًا لها مفصلا فيها مظاهر الإحسان، فقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾.

هذا ووجود الوالدين أو أحدهما في البيت وعناية الابن للقيام بحقهما من أعظم المنن التي يكرم الله بها من يشاء من عباده وآثار ذلك لا حصر لها ولا عد في الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف» قيل: من؟ يا رسول الله، قال: «من أدرك أبويه عند لكبر، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة»، (مسلم، ٢٦١ هـ، حديث رقم 2551).

وفي الحديث تأكيد لفضل الإحسان إلى الوالدين وعظيم أجره، وأن برهما سبب لدخوله الجنة، فمن فاته ذلك «فقد فاتته ثلاث درجات، فكان قول الرسول رغم أنفه ثلاث مرات كل واحدة منهن في جواب إخلاله بحال توجب عليه برهما؛ الأول: وصية الله إياه في الإحسان إليهما، والثانية: مكافأتهما في إحسانهما إليه، والثالثة: عدم رحمتهما عند الكبر» (ابن هبير ٥٦٠هـ).

قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ﴾: «إما»: «"إما" مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الإبهامية لتأكيد معنى الشرط، ثم أدخلت نون التوكيد في الفعل لزيادة التقرير، كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سبق ألبته عادة» (الشوكاني ١٢٥٠هـ). ومعنى ﴿عِندَكَ﴾؛ أي: «أن يكبرا ويعجزا، وكانا كَلًّا على ولدهما، لا كافل لهما غيره، فهم عنده في

بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشد احتمالًا وصبرًا، وبرما تولى مهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة». (الزمخشري ٥٣٨هـ). «والتقييد بحالة الكبر في قوله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ﴾: جرى مجرى الغالب؛ إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية في حالة الكبر، أكثر من احتياجهما إلى ذلك في حالة قوتهما وشبابهما، وإلا فالإحسان إليهما، والعناية بشأنهما، واجب على الأبناء، سواء كان الآباء في سن الكبر أم في سن الشباب أم في غيرهما». (طنطاوي 1431).

هذا؛ ومن دقة بلاغة القرآن أن فاعل (يبلغن) جاء مظهرًا دون جعله بضمير التثنية؛ لمزيد الاهتمام بالوالدين، ولإثبات تخصيص كل حالة من أحوال الوالدين بالذكر؛ «لِأنَّ لِكُلِّ حالَةٍ بَواعِثَ عَلى التَّفْرِيطِ في واجِبِ الإحْسانِ إلَيْهِما، فَقَدْ تَكُونُ حالَةُ اجْتِماعِهِما عِنْدَ الِابْنِ تَسْتَوْجِبُ الِاحْتِمالَ مِنهُما لِأجْلِ مُراعاةِ أحَدِهِما الَّذِي الِابْنُ أشَدُّ حُبًّا لَهُ دُونَ ما لَوْ كانَ أحَدُهُما مُنْفَرِدًا عِنْدَهُ بِدُونِ الآخَرِ الَّذِي مَيْلُهُ إلَيْهِ أشَدُّ، فالِاحْتِياجُ إلى ذِكْرِ أحَدِهِما في هَذِهِ الصُّورَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلى وُجُوبِ المحافَظَةِ عَلى الإحْسانِ لَهُ، وقَدْ تَكُونُ حالَةُ انْفِرادِ أحَدِ الأبَوَيْنِ عِنْدَ الِابْنِ أخَفَّ كُلْفَةً عَلَيْهِ مِن حالَةِ اجْتِماعِهِما، فالِاحْتِياجُ إلى ﴿ أوْ كِلاهُما﴾ في هَذِهِ الصُّورَةِ لِلتَّحْذِيرِ مِنِ اعْتِذارِ الِابْنِ لِنَفْسِهِ عَنِ التَّقْصِيرِ بِأنَّ حالَةَ اجْتِماعِ الأبَوَيْنِ أحْرَجُ عَلَيْهِ، فَلِأجْلِ ذَلِكَ ذُكِرَتِ الحالَتانِ، وأُجْرِيَ الحُكْمُ عَلَيْهِما عَلى السَّواءِ، فَكانَتْ جُمْلَةُ ﴿فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ﴾ بِتَمامِها جَوابًا لِ (إمّا»).(ابن عاشور، ١٣٩٣هـ).

هذا؛ ولما ذكر الله تعالى عظم مكانة الوالدين بين ما على الولد من حقوق تجاه والديه، ويتجلى ذلك بأن يتبع معهما الأمور الخمسة الآتية: قال تعالى: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ﴾: ﴿أُفٍّ﴾: اسم فعل مضارع بمعنى: أتضجر، أو أتقذر، أو أكره، أو نحو هذا، يعبر إيجازًا بهذه اللفظة فتعطي معنى الفعل المذكور، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثلًا لجميع ما يمكن أن يقابل، وإنما هي مثال الأعظم منها والأقل. (ابن السمين ٧٥٦هـ)، قال مجاهد: إن معناه إذا رأيت منهما في حال الكبر؛ الغائط أبو البول اللذين رأياه منك في حال الصغر، فلا تقذرهما، وتقول: أف. قال أبو حيان: والآية أعم من هذا القول، وهو داخل في جملة ما تقتضيه. (ابن عطية ٥٤٢هـ)، والمعنى: إن عاشا والداك عندك وكبر سنهما فلا يصدر منك ما يؤذيهما بأي نوع من أنواع الأذى، ولو كان أقله وهو التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، فضلًا عما هو يزيد عليه.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾؛ أي: ولا تزجرهما. والنهر: الزجر بصياح وغلظة. قال عطاء بن أبي رباح: لا تنقض يدك على والديك. (الطبري 310)، و(السمين الحلبي 756)، هذا؛ وقد عطفت الجملة على ما سبق؛ «لئلا يسحب أن ذلك تأديب لصلاحهما وليس بالأذى». (ابن عاشور، ١٣٩٣هـ)، فالزجر واللوم من أعمال التربية، ولا يليق بهما ذلك، بل يستخدم أنفس العبارات، فإذا رأى الولد أن ينصح لأحد أبويه أو أن يحذر مما قد يضربه وطأ نفسه بقول لين حسن الوقع، هذا؛ وقد قدم الله تعالى المنع من التأفيف على المنع من الانتهار؛ لأن «المراد من قوله: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ﴾ المنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير، والمراد من قوله: ﴿ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾: المنع

من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له». (الرازي، 606هـ).

قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾: الأمر هنا (قل) أرفع من الذي قبله، فإنه «لما نهاه عن القول المؤذي، وكان ذلك لا يستلزم الأمر بالقول الطيب، أمر الله تعالى بأن يقول لهما القول الطيب السار الحسن، وأن يكون قوله دالًّا على التعظيم لهما والتبجيل». (أبو حيان، 745)، هذا؛ وقد فسر السلف الصالح المراد بالقول الكريم في الآية؛ فعن سعيد بن المسيب قال: هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ. وعن ابن أبي حاتم عن الحسن قال: يقول: يا أبَهْ، يا أمه. (السيوطي 911هـ)، وهذا من قبيل التفسير بالمثال، فالآية عامة، فيدخل في معناها كل قول يدل على التأدب والاحترام والتوقير، وكل ما ينافي القول الكريم، «كما خاطب إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿يا أبت﴾، مع كفره، ولا تدعوهما بأسمائها؛ لأنه من الجفاء وسوء الأدب، وإنما تدعوهما بأحب الألقاب الدالة على التبجيل والتعظيم. قال عطاء: تتكلم معهما بشرط أن لا ترفع إليهما بصرك ولا تشد إليهما نظرك؛ لأن ذلك ينافي القول الكريم». (أبو حيان، 745هـ).

قوله تعالى:﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾: وهذه الجملة من الآية فيها زيادة في التوقير والاحترام والتأدب معهما في القول والفعل وحسن المعاملة والمبالغة في التواضع، ويراد بالجناح هنا: «جَناحُ الإنسانِ: جانِبُه، كما أنَّ جَناحَ الطَّيرِ جانِبُه، والولَدُ مأمورٌ بأن يَخفِضَ جانِبَه لأبويه، ويكونَ ذلك على وَجهِ الذُّلِّ لهما لا على وَجهِ الخَفضِ الذي لا ذُلَّ معه، وقد قال للنبيِّ: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يَقُل: جناحَ الذُّلِّ، فالرَّسولُ أُمِرَ بخَفضِ جناحِه، وهو جانِبُه، والولَدُ أُمِرَ بخَفضِ جناحِه ذُلًّا، فلا بُدَّ مع خَفضِ جناحِه أن يَذِلَّ لأبويه، بخِلافِ الرَّسولِ؛ فإنَّه لم يُؤمَرْ بالذُّلِّ؛ فاقترانُ ألفاظِ القُرآنِ تدُلُّ على اقترانِ معانيه وإعطاءِ كُلِّ معنًى حَقَّه، ثم إنه سبحانه كمل ذلك بقوله: ﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، فهو جناح ذل من الرحمة، لا جناح ذل من العجز والضعف؛ إذ الأول محمود، والثاني مذموم». (ابن تيمية، 827هـ).

هذا؛ والمقصود من الآية المبالغة في التواضع، فجاء التصوير رائعًا؛ لبيان أمر التواضع والرحمة التي يجب أن يتخلق بها الأبناء، وبيان ذلك ما ذكر القفال في تقريره لهذه الآية وجهين: «الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك، كما فعلا ذلك بك في حال صغرك، والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن التواضع». (الرازي، 606هـ).

قال الألوسي: وإنما احتاجا إلى ذلك؛ لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما، والمعنى: تذلل لوالديك، كذلك المتواضع في القول والفعل وحسن المعاملة فيما يأمرانك به وينهانك عنه مما ليس فيه معصية لله، مع الرحمة

التامة التي لا نهاية لها عليها، كما فعلا بك حال صغرك، وقد جاء عن السلف الصالح بيان لهذا التواضع؛ فعن هشام بن عروة، عن أبيه قال عند هذه الآية: «هو أن تلين لهما حتى لا تمتنع من شيء أحباه». (الطبري 310هـ)، فمن عقوق الوالدين «مخالفتهما في أغراضهما الجائزة، كما أن برهما موافقتهما على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما بأمر وجبت طاعتهما إذا لم يكن ذلك الأمر معصيته، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب». (القرطبي، 671هـ).

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾: لما ذكر الله تعالى رحمة العبد الفانية الناقصة، انتقل هنا إلى ذكر رحمة الله تعالى الباقية الكاملة والشاملة لخيري الدنيا والآخرة، والمعنى: ادع الله لوالديك بالرحمة، ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾: وتعطف عليهما بمغفرتك ورحمتك، كما تعطفا عليَّ في صغري، فرحماني وربياني صغيرًا، حتى استقللت بنفسي، واستغنت عنهما. (الطبري، 310هـ)، قال الجمل: والكاف في قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها نعت لمصدر محذوف؛ أي: ارحمهما رحمة مثل رحمتهما لي.

والثاني: أنها تعليل؛ أي: ارحمهما لأجل تربيتهما لي، كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: 198]. (الجمل، 1204هـ)، هذا؛ «ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا، فلم يقتصر عز وجل في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال، بل أضاف إليه تعليم الأفعال، وهو أن يدعو لهما». (الرازي، 606هـ).

وهذا الدعاء لا يكون في حال حياتهما، بل حتى بعد موتهما، ويدل على ذلك ما روي عن النبي: أن رجلًا سأله: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما». (الحاكم، 405هـ)، «وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قربى، وذكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: 113]، وقيل: الدعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين». (القرطبي، 671هـ)، قال الطبري: «والآية عامة، ويراد بها الخصوص، فيكون معنى الكلام: وقل رب ارحمهما إذا كانا مؤمنين كما ربياني صغيرًا». (الطبري، 310هـ)، وهذا الإحسان والبر في حال حياتهما وبعد موتهما لا يعادل ما قام به الوالدين من الرحمة والشفقة وحسن التربية في حال الصغر إلى أن استقر برعاية نفسه، ولذلك جاء في الحديث: «لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه». (مسلم، 261هـ، حديث رقم 151). أي: لا يقوم ولد بما لأبيه عليه من حق، ولا يكافئه بإحسانه إلا أن يصادقه مملوكا فيعتقه». (مسلم، 261هـ).

الهدايات المستنبطة من الآيتين وسبل تحقيقها في واقع المجتمع

المطلب الأول: الهدايات المستنبطة من الآيتين

قوله تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا [الإسراء: 23].

قوله: ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾: «جيء بخطاب الجماعة؛ لأن النهي يتعلق بجميع الناس، وهو تعريض بالمشركين». (ابن عاشور، 1393هـ). قول الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ابتُدِئ التشريع بالنهي عن عبادة غير الله؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح». (ابن عاشور، 1393هـ). قال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19] ثم إنه تعالى أردفه بقوله: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً (22) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة» (الرازي، 606هـ).

بدأ سبحانه وتعالى في الآية بذكر الأمر بالتوحيد وثَنَّى بطاعة الله تعالى، وثلث بالبر بالوالدين، وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة» (الرازي، 606هـ). القضاء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ هو الديني أي: أمر ربك بذلك ويقابله القضاء الكوني كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: 12] (ابن تيمية 652هـ). قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً..﴾ عطف على الكلام السابق وعطف غرض على غرض، تخلصا إلى أعمدة من شريعة الإسلام، بمناسبة الفذلكة المتقدمة؛ تنبيها على أن إصلاح الأعمال متفرع على نبذ الشرك» (ابن عاشور، 1393هـ)، يفيد قوله ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية» (السعدي، 1376هـ).

«جاءت الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب، وهو الإحسان إلى الوالدين، ولم تذكر بأسلوب النهي سموًا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة الى الوالدين وكأن الإساءة إليهما، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهي عنها...». (شلتوت، 1963هـ) تفيد الآية: أن الله تعالى بالغ في التوصية بالإحسان إلى الوالدين مبالغة تقشعر لها الأبدان عندما افتتح الآية بالأمر بتوحيده وعبادته ثم بالإحسان إلى الوالدين.

يفهم من قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾: أنه من أساء التعامل مع والديه يجب أن يعاقب عقوبة بليغة تردعه. يفهم من قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾: «أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين؛ فإن له على من رباه حق التربية»

(السعدي، 1376هـ).

يدل إطلاق لفظ «إحسانًا» على دخول كل إحسان قولي أو فعلي أو بدني، بحسب أحوال الوالدين والوقت والمكان، فإنه داخل في البر. يفهم من قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾: «إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل، وإن لم تَرِدْ نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى، ومنع هذا مكابرة للعقل والفهم والفطرة» (ابن القيم، 751هـ). تفيد الآية «تضييق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تتفلت من المتضجر مع موجبات التضجر، ومع الأحوال التي لا يكاد الإنسان يصبر معها» (الهرري، 1441هـ). «ذكرت الآية الإحسان إلى الوالدين بأسلوب الأمر، ولم تذكره بأسلوب النهي سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين وكأن الإساءة إليهما ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهي عنها» (شلتوت، 1963هـ).

جاء أسلوب الآية مناسبا لخطاب أمة تتمثل أمر ربها ولذا افتتحت الآية بفعل القضاء المقتضي الإلزام بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..﴾ [الأنعام: 151] فإنه خطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم» (ابن عاشور، 1393هـ). يفيد قوله ﴿عِندَكَ﴾ الدلالة على أنهما لجأ إليه لضعفهما ولشيخوختهما يعيشان في كنفه وظل قوته، ونعمته برعاهما، لا عائل لهما غيره (أبو زهرة 1394هـ).

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾: إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صارا عبئا وكَلًّا على ولدهما، فالزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما وشؤونهما أكثر مما ألزمه من قبل. يفيد تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ لمزيد من الاهتمام بهما ولإثبات أنهما أولى من دون الناس بالإحسان، فلا يكون الرجل كريما مفاخرًا بالعطاء بين الناس، ولا يحسن إلى أبويه (أبو زهرة 1394هـ).

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ أكد فعل الشرط بنون التوكيد ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ ومضمون الشرط في الوجود. (ابن عاشور،1393هـ). تفيد الآية أن أعظم نعمة بعد نعمة الله تعالى على خلقه نعمة الوالدين. يفيد تقديم ﴿عِندَكَ﴾ على المفعول (عدم إطالة الكلام به) مع أن حقه التأخير عنه للتشويق إلى وروده، فإن مدار تضاعف الرعاية والإحسان. (أبو السعود، ت ١٢٧٠هـ). يفيد توحيد ضمير الخطاب في ﴿عِندَكَ﴾ وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد، فإن المقصود نهيُ كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما. ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المراد. (أبو السعود، ت ١٢٧٠هـ).

في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: تحريم الإساءة إلى الوالدين؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده. تفيد الآية أن من لم يتحسن إلى والديه ولم يسئ لهما فهو مقصر؛ لأن الله أمر بالإحسان، وخلاف الإحسان شيئان

إساءة، وعدم إساءة وإحسان، وهذا خلاف ما أمرنا الله به، قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (ابن عثيمين، 1421هـ). جاء لفظ قوله تعالى: ﴿إحساناً﴾ بلفظ التنكير، والتنكير يفيد التعظيم؛ أي: إحسانًا عظيمًا كاملًا.

قول الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: يرشد إلى الإحسان بهما إحسانًا تامًّا كاملًا لا يدخر فيه وسعًا، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت، فكيف بالعقوق المقابل لغاية الإحسان، وهو من أكبر كبائر المحرمات. (رضا، 1354هـ). قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما؛ للمبالغة وللدالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما، وللإيذان أن الإساءة إليهما ليس من شأنها أن تقع، فيحتاج إلى التصريح بالنهي عنها؛ لأنها خلاف ما تقتضي الفطرة السليمة الآداب المرعية عند جميع الأمم، «وإنما عدل عن النهي عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان اعتناءً بالوالدين؛ لأن الله أراد برهما، والبر إحسان، والأمر به يتضمن النهي عن الإساءة إليهما بطريق فحوى الخطاب. (البيضاوي، 685هـ)، «التحرير والتنوير». (ابن عاشور ،1393هـ، (رضا، 1354هـ).

قول الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: الإحسان يتعدى بـ(الباء) و(إلى)، فيقال: أحسن به، وأحسن إليه، والأولى أبلغ، فهو بالوالدين أليق؛ لن من أحسنت به هو من يتصل به برك وحسن معاملتك، ويلتصق به مباشرة على مقربة منك وعدم انفصال عنك، ولو قال سبحانه: إلى الوالدين إحسانًا؛ كان المطلوب إيصال الإحسان فقط دون المباشرة عن قرب. (رضا، 1354هـ). قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: ذكر الله تعالى حق الوالدين بعد حقه؛ لأن فيه أعظم حقوق البشر: حق الوالدين؛ لن الله جعله في المرتبة الثانية بعد حقه، ولا يرد على هذا حق الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن حق الرسول داخل في حق الله، ووجهه: أن العبادة لا تتم إلا بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله. (ابن عثيمين، 1421هـ). يفيد الخطاب بـ(عندك) لكل من يصلح لسماع الكلام، فيعم كل مخاطب بقرينة سبق قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40]، وقوله اللاحق: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: 25]. (ابن عاشور ،1393هـ).

قال تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾: بولغ بذكر الذل هنا، ولم يذكر في قوله: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215]، وذلك بسبب عظم حق الوالدين.(ابن عاشور ،1393هـ). دل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أن الدعاء والاستغفار لهما يحط ذنوبهما ويرفع درجتهما، إلى ما لم يبلغاه بعلمهما، وأن استغفار الفرع لأصله بعد موته كاستغفاره، وهذا من جملة البر بهما بعد موتهما. (المناوي 1031). أفاد تخصيص التربية بالذكر في قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾: ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية والإصلاح، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما، وحنانًا عليهما، واستشعارًا بعظمة حق والديه عليه.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾: «إيماء إلى أن الدعاء لهما مستجاب؛ لأن الله أذن فيه، قال رسول الله: «إذا مات ابن آدم انقطع عماله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد يدعو له». (الترمذي، 279، حديث رقم، 1376) (ابن عاشور ،1393هـ). تنبه الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾: «على أن التخلق بمحبة الولد الخير لأبويه يدفع إلى معاملته إياهما به فيما يَعْلمانِه وفيما يخفى عنهما حتى فيما يصل إليهما بعد مماتهما».(ابن عاشور ،1393هـ).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله قال: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقو: أنى لي هذا؟ فيقا: باستغفار ولدك لك». (ابن ماجة، 273»، حديث رقم 3660، والألباني 1420هـ، حديث رقم 161). حض الله تعالى بالذكر في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾؛ «ليتذكر العبد شفقة الأبوين، وأنهما آثراك على أنفسهما، وتعبهما في حسن التربية، فيزيده ذلك إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما ورحمة بهما». (القرطبي، 671هـ). يفهم من قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ أنه كلما زادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية. (السعدي، 1376هـ).

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾: إضافة الجناح إلى الذل للبيان؛ لأنه صفة مبينة. أي: جناك الذليل وفيه مبالغة؛ لأنه وصف بالمصدر فكأنه جعل عين الذل فيكون مثلا لغاية التواضع؛ وسر ذكر الجناح وخفضه، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس". (القاسمي، ١٣٣٢هـ). أفاد لفظ "الذل" في الآية في اعتياد النفس على التخلق بالرحمة باستحضار وجوب معاملته إياهما بها حتى يصير له خلقا فهو ذل ناشيء عن الرحمة لا عن الخوف أو عن المداهنة. (ابن عاشور ،1393هـ)، هذا وكانت المعاني المستنبطة من هاتين الآيتين على قلة ألفاظهن كثيرة جدا ولو أردنا أن نأخذ من ظلالها، ونأخذ من معانيها، ومن هداياتها، ونجمع ذلك فإننا لا نستطيع ذلك في بحث أو بحثين ولا أكثر ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بكلامه وكتابه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المطلب الثاني: سبل تحقيق الهدايات المستنبطة من الآيتين في واقع المجتمع

الإيمان هو أساس الدين

ولذا إذا تحقق الإيمان في الأفراد والمجتمعات حصل للمسلمين خيراً كثيراً في أمور دينهم ودنياهم، يقول ابن عاشور: «وابتدئ التشريع بالنهي عن عبادة غير الله؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح؛ لأن إصلاح التفكير مقدم على إصلاح العمل إذ لا يشاق العقل إلى طلب الصالحات إلا إذا كان صالحا»، وقال رسول الله: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب»، هذا ولما أمر الله تعالى بمعرفة أصل الإصلاح، وهو الإيمان به، وعبادته أتبعه بمعرفة الحق لأول المربين من الخلق وهما الوالدين، ولذا ووفق هذا الأساس يستطيع المجتمع أن يبني القوانين ويشرعها وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية والتي تحقق الاحترام

والتوقير للوالدين في حال كبرهما أو كنف أحد أبنائهم.

تأكيد بيان ما جاء في معرفة الحق لأول المربين من الخلق

وهما الوالدين في الوقوف على الآيات والأحاديث الدالة على الإحسان بالوالدين، فيحيا الفرد والمجتمع حياة طيبة سعيدة وينجوا من كل تفريط وتقصير في حق الوالدين، قال الله تعالى عن عيسى بن مريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: وأمرني ببرّ والدَتِي، ذكره بد طاعة الله ربه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا..﴾؛ لأن الله تعالى كثيرًا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23] وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14]، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. أي: ولم يجعلني جبَّار مُستكبرًا عن عبادته وطاعته وبرّ والدتي، فأشقى بذلك، قال بعض السلف: لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا، ثُم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (ابن كثير، 774هـ).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى رسول الله فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «فقل من والديك أحد حي؟» قال: نعم، بل كلاهما حيّ. قال: فتبتغي الأجر من الله؟ قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» (مسلم، 261هـ، حديث رقم 2549)، قال النووي رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث: «وفي الحديث دليل تعظيم فضل بر الوالدين وأنه آكد من الجهاد، إذا كان فرض كفاية، فيحرم عليه أن يجاهد إلا بإذنهما، أما إذا تعين فلا إذن» (النووي، 676هـ).

الحذر من عقوق الوالدين بأي نوع من العقوق

قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قول الزور، وكان رسول الله متكأ فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» (مسلم، 261هـ، حديث رقم، 87).

فانظر كيف قرن النبي الإساءة إلى الوالدين وعدم البر بهما بالإشراك بالله، ليتبين الترابط الوثيق بينهما، فجاء العقوق بعد الشرك بالله، وكما أن بر الوالدين جاء بعد الأمر بالتوحيد، جاء في المقابل النهي عن العقوق بعد النهي عن الشرك بالله تعالى وذلك ليبين خطورة العقوق بعد النهي عن الشرك بالله تعالى وذلك ليبين خطورة العقوق وأنه من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله تعالى، هذا والجامع فيما بينهما هو نكران الحق والجميل الذي كان سببا في وجوده، فالمشرك ينكر وحدانية الله تعالى وهي حق، والعاق ينكر جميع صنع والديه وسبب وجوده بعد الله تعالى، وهو حق.

الخوف من عذاب الله في الدنيا والآخرة، فالله مطل على جميع أعمال عباده الظاهرة والباطنة، وسيجازي عباده على جميع أعمالهم ولهذا جاء بعد قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ فوعد الولد بالمغفرة له إن هو أدى ما أمره الله به لوالديه من حقوق وافيا كاملا، وهو مما يشمله الصلاح في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾. أي: ممتثلين لما أمرتم به من أداء ما عليكم من حقوق تجاه والديكم.

أهمية العلم أن ثمة أعمال خير يستمر بها البر بالوالدين حتى بعد وفاتهما، فدل ذلك على عظيم منزلة الوالدين وأنه يستمر إلى ما بعد وفاتهما، فعن أبي أُسيد الساعدي رضي الله عنه، قال: أتى رسول الله رجل من بني سلمة وأنا عنده، فقال: يا رسول الله إن أبوي قد هلكا، فهل بقي بعد موتهما من برهما شيء؟ قال رسول الله: «نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهودهما من بعدهما وإكرام صديقهما، وصلة رحمهما التي لا رحم لك إلا من قبلهما»، قال الرجل: ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه! قال: «فاعمل به». (الحاكم، 405هـ، حديث رقم 7260).

خلاصة

إن العلم بعظم مكانة الوالدين الثابتة في القرآن الكريم، وورودها بعد تقرير وحدانية الله تعالى وعبادته فيه ضمان لهدايات عديدة يؤدي فهمها واعتقادها إلى إصلاح الفرد والمجتمع، والحذر من التفريط أو التقصير بأي حق من حقوق الوالدين، سواء كان قولًا أو فعلًا، في حال حياتهما أو موتهما.

تناسق ألفاظ الآيتين مع عظم ما فيها من معانٍ، فجاءت تلك المعاني متناسقة مترابطة في كلماتها وموضوعها في صورة بلاغية ساحرة، عُرضت بها تلك الدلالات العميقة والهدايات المستنبطة لأكبر حق بعد حق الله تعالى؛ وهو: الإحسان إلى الوالدين، وأطلق الله تعالى لفظ (الإحسان) ليتناول اللفظ بعمومه وإطلاقه على كل إحسان ممكن ومقدور عليه، وهذا من كمال مدلول المفردة القرآنية، والمفردة القرآنية (قضى) لها دور كبير في إبراز المعنى المطلوب، فـ"قضى" في كلام العرب: أتم المقضي محكما، والمقضي هنا هو الأمر، والتمثيل القرآني ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ له أثر زائد في السياق لإظهار عظم مكانة الوالدين بعدما قرن الله تعالى حقهما بعبادته وتوحيده سبحانه وتعالى.

References

Abd al-Azim, Saad. 2015. *Recovering What was missed from the rhetoric of similar verses.* Cairo: Dar Ibn al-Jawzi.

Abu Al-Saud, Al-Emadi. n.d. *Guiding the Right Mind to the Advantages of the Holy Book*. Beirut: Dar Revival of Arab Heritage.

Abu Dawud. 2009. *Sunan Abi Dawud.* Tahqiq: Shuaib Al-Arnaout. Beirut: Dar Al-Risala Al-Alamiah.

Abu Hayyan, Muhammad Ibn Yusuf. 1420 H. *Al-Bahr Al-Muheet fi Al-Tafsir.* Tahqiq: Sidqi Muhammad. Beirut: Dar Al-Fikr.

Al-Biqa'i. n.d. *Al-Durar Systems in the Proportion of Verses and Surahs*. Cairo: Dar Al-Kitab Al-Islami.
Al-Bukhari. 1422H. *Sahih Al-Bukhari*. Tahqiq: Muhammad Zuhair. Dar Touk Al-Najat.
Al-Hamad, Abd al-Qadir Shaybah. 1982. *Islamic Jurisprudence, Explaining the Attainment of Maram, from the Collection of Evidence for Rulings*. Al-Madinah Al-Munawwarah: Al-Rasheed Printing Press.
Ibn al-Qayyim. 1991. *Informing the Signatories of the Lord of the Worlds*. Tahqiq: Muhammad Abd al-Salam. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
Ibn Hubaira. 1417H. *Disclosure of the Meanings of Al-Sahih*. Tahqiq: Fouad Abdel-Azim. Riyadh: Dar Al-Watan.
Ibn Taymiyyah, Ahmad Ibn Abd al-Halim. 1999. *The sufficient answer for those who changed the religion of Christ*. edited by: Ali Ibn Hassan. 2nd edition. Saudi Arabia: Dar Al-Asima.
Al-Isfahani, Al-Raghib, Abu Al-Qasim Al-Hussein Ibn Muhammad. 2012. *Vocabulary in the Strange Qur'an*. Cairo: Dar Ibn Al-Jawzi.
Al-Nawawi, Abu Zakariya Yahya Ibn Sharaf. 1392H. *Al-Minhaj Explanation of Sahih Muslim*. 2nd edition. Beirut: Dar Ihya Al-Turath Al-Arabi.
Al-Naysaburi, Muslim Ibn Al-Hajjaj n.d. *Sahih Muslim*. Tahqiq: Muhammad Fouad Abdel-Baqi. Beirut: Dar Revival of Arab Heritage.
Al-Qurtubi, Abu Abdullah Muhammad. 1964. *The Collector of the Rulings of the Qur'an*. Tahqiq: Ahmed Al-Bardouni. Cairo: Egyptian Book House.
Al-Razi, Al-Fakhr Din. 1420H. *Keys to the Unseen*. 3rd edition. Beirut: Dar Ihya al-Turath al-Arabi.
Al-Saadi, Abd al-Rahman al-Saadi. 2000. *Tayseer al-Karim al-Rahman in the Interpretation of the Words of al-Manan*. Tahqiq: Abdul Rahman Al-Luwehaq. Riyadh: Al-Risala Foundation.
Al-Tabari, Muhammad Ibn Jarir. 2001. *Al-Bayan Mosque on the Interpretation of Verses of the Qur'an*. Tahqiq: Abdullah Al-Turki. Riyadh: Dar Hajar.
Al-Tirmidhi. 1998. *Sunan Al-Tirmidhi*. Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami.
Al-Zamakhshari. 1407H. *al-Kashshaf on the facts of the obscure revelations*. 3rd edition.Beirut: Dar al-Kitab al-Arabi.